

## مصامدة الجبال

### العقلية والدعوة الموحدية

أ.د. عز الدين جسوس

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الجديدة - المغرب

### Massamdh mountains mental Almohad and advocacy

#### Abstract:

Find falls on the theme of the mountain and all its partner in the overall theme for the study of the semi desert. Any topic related to semi desert that time surrounded in mystery a lack of available information or lack thereof College. we do not know about the semi desert, but outs are repeated in most of the research, which focused on the subject. Because the source itself does not only treat a presentation of the valley and their positions, taking into account the metropolitan lion before then. There is no doubt that urban life is different in almost all parts of nomadic life, despite the mutual relationship between the two parties which were the countryside and structure of the population do not benefit from the development of civilization which they know metropolises; it has been marginalized and dominated by the failure of his people in all areas. It then prints the people in ignorance, illiteracy, and the tendency to bloodshed.

قد تبدو مساندة مصامدة الجبال لابن تومرت غريبة وتدعو إلى الوقوف عند عدد من التساؤلات بسبب انضمام المصامدة سلميا إلى الحكم المرابطي وبسبب بناء مراكز عاصمة الدولة في مجاهم الجغرافي؛ فمصامدة الجبال مثلوا الفئة البدوية القبلية التي أبدت معارضتها للمرابطين وساندت ابن تومرت وانتهى الأمر بإسقاط الحكم القائم.

ويندرج البحث في موضوع الجبل وكل ما يرتبط به ضمن الموضوع العام لدراسة البوادي. وأي موضوع يتعلق بالبوادي خلال هذه الحقبة يكتنفه غموض لنذرة المعلومات المتوافرة أو لانعدامها كلية<sup>1</sup>. إذ لا نعرف عن البوادي إلا عموميات تتكرر في أغلب الأبحاث التي اهتمت للموضوع. لأن المصادر في حد ذاتها لا تتطرق إلا عرضاً للبوادي وأوضاعها، بينما تستأثر الحواضر عندها بالنصيب الأوفر. ولا شك أن الحياة الحضرية تختلف في جل مكوناتها عن الحياة البدوية، ورغم العلاقة المتبادلة التي كانت بين الجانبين فإن البوادي بسكانها وهيكلتها لم تكن تستفيد من التطور الحضاري الذي كانت تعرفه الحواضر؛ إذ كانت مهمشة ويسيطر على أهلها تخلف في جميع المجالات. ومن ثم كان يطبع أهلها الجهل والأمية والميل إلى سفك الدماء.<sup>2</sup>

### 1- التهميش والعزلة

تشير عدد من الروايات التي نتوفر عليها إلى أنه إلى غاية القرن الخامس الهجري كانت هنالك عدد من المناطق البدوية الجبلية المنعزلة والنائية تتمسك بمعتقدات دينية وثنية؛ مثل تلك القبيلة من البربر التي لا نعرف اسمها وهي قبيلة كانت تجاور بني لماس في جبل وعمر وكان أهلها يعبدون كبشا. والظاهر أنهم كانوا على وعي بانعزالهم وعزلتهم لأنهم كانوا لا يدخلون الأسواق إلا خفية<sup>3</sup>. ولعل ذلك كان من بين الأسباب التي أدت إلى ترويع وذبوع - حسب ما يورده البكري - حديث مفاده: "ان بالمغرب جبلا يقال له درن يزف يوم القيامة بأهله إلى النار كما تزف العروس إلى بعلها"<sup>4</sup>.

ولا شك أن هذه العزلة هي التي جعلت عقيدة التشيع تنتشر بين عدد من القبائل البدوية في المنطقة؛ إذ أن بني لماس المجاورين للقبيلة التي كانت تعبد الكبش كانوا من الشيعة الرافضة التي تعرف بالجبالية<sup>5</sup>. وهذا ما يجعلنا نتساءل عن مدى تغلغل الإسلام وعقيدة الفاتحين داخل المناطق البدوية والجبالية النائية، وعن كون ما تحدثنا عنه المصادر من تغلغل الإسلام في بلاد المغرب واعتناق أهله الدين الجديد صحيحا في المناطق المنعزلة؛ أم أن الأمر ارتكز بالأساس في المناطق الحضرية والجمال البدوي المجاور لها أو القريب منها؟!

وكانت بلاد المصامدة في جبل درن تعاني من هذا التهميش وهذه العزلة. ونعلم أن المصامدة شكلوا الوقود البشري أو العصبية التي استند عليها ابن تومرت للإطاحة بالحكم المرابطي. وحالهم هذه هي ما جعل ابن أبي زرع ينعتهم - رغم أنه كان معاديا للموحدين - بأنهم كانوا: "قوما لا يعرفون شيئا من أمور الدنيا ولا من أمور الدين فاستهواهم بكيده (أي ابن تومرت)"<sup>6</sup>. ويؤكد لنا أحد المصامدة أبو علي صالح هذه الوضعية المتردية بقوله: "ونحن المصامدة قليل من تكلم من العلماء على قبلتنا في ما

بلغ علمنا"<sup>7</sup>. ولا شك أن هذه الوضعية المعرفية وما ترتب عنها في عقلية المصامدة هي التي جعلتهم - إضافة إلى عوامل أخرى- يساندون التيار المهدوي لابن تومرت الذي استعمل كل الوسائل لإقناعهم وضمهم إلى حركته.

إلى جانب هذه العزلة المعرفية والدينية على وجه الخصوص بالنسبة للتيار الديني السائد في الحواضر هنالك تهميش آخر يتمثل في علاقة الجبال بالسلطة السياسية؛ حيث أن العلاقة بين الجانبين كانت اسمية ولم يكن لها إلا وجود صوري داخل هذه المناطق. وكان لهذا الوجود مظهر -قد يكون الوحيد- هو جباية الضرائب على الرغم من أن عددا من رؤساء القبائل كانوا يحضرون الحفلات الرسمية ومراسيم البيعة<sup>8</sup>، ورغم أن هذه القبائل كانت تمد الفرق العسكرية بالجند<sup>9</sup>. وتوفر لنا إحدى نوازل عياض معلومات هامة جدا تؤكد عدم وجود ممثل عن السلطة السياسية في المناطق البدوية الجبلية. وتشير أيضا إلى المشاكل التي كان يعاني منها المصامدة أهل هذه المناطق وإلى الفراغ الذي كان يترتب عن ذلك للحاجة إلى السلطة السياسية والقضائية لضبط الأمن والحفاظ على الحقوق والممتلكات، وبالأخص في ما يتعلق بمعاينة الجناة وتطبيق الأحكام<sup>10</sup>.

ولا شك أن هذه الوضعية التي تعيشها البوادي عامة والجبال بشكل خاص كانت تؤثر على علاقتها بالسلطة السياسية. غير أننا وأمام هذه السياسة التهميشية وأمام تلك السلطة الإسمية التي كان يقنع بها الحكام لا نجد أي مبادرة أو سياسة للعمل على القضاء ولو جزئيا على عزلة المناطق البدوية. وكانت هذه المناطق البدوية مع هذا التهميش تضم أغلبية الرعية وهي المناطق التي كانت تزود الآلة العسكرية بالجند. فالحواضر كانت قليلة بالنسبة لمجال الدولة بالمغرب مقارنة له بالأندلس التي كانت تضم عددا أكثر من المدن و أغلبية المجال كان بدويا وتسكنه عدد من القبائل. ولعل العزلة التي كانت تعيشها هذه المناطق هي التي جعلت عقلية أهل البادية تنظر نظرة عدائية إلى أهل الحواضر و تعتبر " مال أهل الحاضرة حالالا لها"<sup>11</sup>. وكأنها غنيمة بإمكانها الاستيلاء عليها في الأوقات أو الظروف المواتية.

ومن أجل ذلك أليس من المحتمل أن يكون كل من العزلة والتهميش والجهل من وراء أسباب مساندة مصامدة الجبال لابن تومرت؟ فالسلطة السياسية كانت غائبة عن هذه المناطق ولا يوجد ممثل لها ولا حامية عسكرية بها. ولهذا كان صعود ابن تومرت لتنمّل وتآليب القبائل المصمودية ثم تسخيرها للقيام ضد المرابطين أمرا سهلا. لأنه كان يعمل في مجال لا وجود فيه للسلطة السياسية بشكل فعلي. ولذلك حارب المرابطون الموحدين والمصامدة بسياسة الحصون التي أقاموها على سفوح الجبال. فلم يكن

بإمكانهم محاربتهم من الداخل أي من الجبال نفسها، ومن داخل الوسط المصمودي لغياب ممثل للحاكم.

ومن الطبيعي أن يكون موقف أهل الجبال والبدو بصفة عامة موقفا مشمئزاً من السلطة الحاكمة وينظر إليها نظرة عدم رضى لأنها لا تهتم إلا بالخواضر التي كان البدو يعتبرونها مورداً مالياً. و من المحتمل أن تكون هذه الرؤية صائبة ولكن - واستناداً إلى ما تتوفر عليه من معلومات - لم يصلنا أي موقف احتجاج لأهل البوادي ضد الحكم. وربما يعود ذلك إلى أنهم تعودوا أن يعاملوا بالمعاملة ذاتها، وأن التهميش أصبح عرفاً سائداً في حياتهم ويرونه أباً عن جد. ومما يدعم هذه الفرضية هو أن الفقهاء والقضاة الذين كان لهم تأثير على السلطة السياسية وكانوا فئة ضمن المجتمع السياسي، كانوا ينظرون إلى الأمر كأنه حالة عادية داخل المجتمع. ولهذا استعمل الفقيه القاضي عياض في جوابه على النازلة التي أشرنا إليه كلاماً عادياً لأن الأمر كان متداولاً ومعروفاً وليس غريباً على أصحاب السلطة: " وكل بلد لا سلطان فيه أو فيه سلطان يضيع الحدود أو السلطان غير عدل فعدول الموضع وأهل العلم يقومون في ذلك مقام السلطان"<sup>12</sup>. في الوقت الذي كان بإمكان الفقهاء التدخل لدى السلطة الحاكمة للاهتمام بالبوادي والرعية الموجودة بهذه المناطق النائية من جبال وغيرها لتهيئ مشروع لإدماجها داخل الإطار العام الذي كانت تسير فيه الخواضر. ولكن يبدو أن جميع الأنظمة الحاكمة خلال هذه الحقبة لم تكن تستوعب هذا النوع من التفكير تجاه هذه المناطق المنعزلة، لأن الاهتمام كان تتركز بالأساس على الخواضر. و لا تدعو هذه السياسة إلى الاستغراب ونحن نعلم أن عملية إدماج البوادي في السياسة العامة للدولة لإخراجها من عزلتها أمر لم يتم التفكير فيه إلا في الحقبة الحديثة.

## 2- المرباطون و مصامدة الجبال

لقد تساءل أحد الباحثين عن ثورة المصامدة ضد السلطة المرباطية وتساءل عن "الخلل" الذي قد يكون في موقع العاصمة وعن "أسلوب المراقبة" وعن " غياب عناصر الضعف والقوة به؛ والنتيجة خلق أزمة اقتصادية وسياسية بالمجال جعلت أهله بركانا قابلاً للانفجار"<sup>13</sup>.

إن هذه التساؤلات التي تم وضعها تبقى محتملة انطلاقاً من رؤية صاحبها، ولكن ليس لها ما يسندها. كما أن ما يذهب إليه في أمر الرقابة على أهل الجبل واستيلاء الحكم المركزي على مناطق انتجاعهم بالحوز<sup>14</sup> لا يجد ما يسنده ولا علاقة له بانقلاب المصامدة على المرباطين. لأن وصول المرباطين إلى بلاد المصامدة لم يغير شيئاً يؤثر سلباً على الحياة الاقتصادية. بل كان دخولهم إلى المغرب عاملاً رئيسياً لاستتباب الأمن و الاستقرار وتطوير الحياة الاقتصادية. ولو كان الأمر كما يقدمه هذا

الباحث لما انتظر المصامدة التعبير عن سخطهم حتى ظهور ابن تومرت لأن الأمر يتعلق بمجال حيوي لهذه العناصر البشرية. ثم إن بناء مدينة مراكش زاد من قيمة المنطقة اقتصاديا وسياسيا فاستفاد المجال وأهله من وجود العاصمة المرابطية. وهي استفادة لم تكن في صالح مصامدة السهل فحسب بل استفاد منها مصامدة الجبل أيضا باعتبار رابطة الدم والعلاقات التجارية التي كانت بين الجانبيين. ثم إن السلطة السياسية المرابطية التي اتخذت قرار بناء العاصمة في هذه المنطقة لا يمكن أن تقوم بالمسار بالمصالح الاقتصادية لأهل جبل درن الذين كانت لهم علاقة تاريخية مع المناطق السهلية. فهي بعملها هذا تحدث لنفسها مشاكل مع المصامدة الذين كانت تعرف جيدا وزنهم. ولهذا أوصى يوسف بن تاشفين ابنه عليا " بألا يهيج أهل جبل درن ومن ورائه من المصامدة"<sup>15</sup>.

ونتيجة لما سبق فالأمر لا علاقة له بالسياسة المرابطية بالمنطقة لأن العلاقة أسست ثم بنيت منذ وصول المرابطين على التفاهم والتعايش. ويرى باحث آخر أن استقرار المرابطين بمراكش كان عبارة عن بداية لصراع " لم يسبق له مثيل"<sup>16</sup>. ويدعم فكرته بالتفسير نفسه الذي قدمه الباحث السابق لمشاكل الصراع الاقتصادي على مناطق الانتجاع و الغنى الذي كان عليه حوز مراكش. ويرى أن استقرار المرابطين بالقرب من هذه الجبال، أوحسب تعبيره " بأكدير الشمالي"، "أدى إلى عدم توازن وخلخلة النظام والأشياء التي كان يعيش عليها مصامدة الجبال لأن المنطقة تشكل مجالا حيويا بالنسبة لهم"<sup>17</sup>. ويؤكد الباحث على فكرة الصراع هذه ويتضح ذلك انطلاقا من عنوان دراسته. ولكن الأمر الغريب في هذه الدراسة يبرز في أنها تصور وجود المرابطين بالحوز وبلاد المصامدة كأنه وجود لقبيلة استولت على مجال انتجاع مصامدة الجبال، ولم يكن الأمر كذلك. إذ نعرف أن هذا الاستقرار زاد من الطابع الحضري للمنطقة وهذا ما استفاد منه المجال وأهله. وهو ما أمدتنا المصادر بخصوصه بعدد من الإشارات والمعلومات<sup>18</sup>. فبعد أن تمكن المرابطون من تثبيت أقدامهم في منطقة درعة واستنادا إلى ما يورده ابن عذاري<sup>19</sup> توجه عبد الله بن ياسين بنفسه إلى المجال المصمودي ولم يتوجه الفقيه المالكي على رأس جيش لإخضاع المنطقة بل توجه داعية لإجراء محادثات مع أشياخ القبائل. وكانت عملية إخضاع المجال المصمودي تختلف تماما عن عملية إخضاع سجلماسة و درعة. وستصبح للمصامدة بفعل ذلك وضعية خاصة لدى السلطة السياسية المرابطية. وصل عبد الله بن ياسين إلى أغمات عاصمة هذا المجال وأحد أهم الحواضر التجارية بعد سجلماسة<sup>20</sup>. واجتمع بأشياخ قبائل وريكة وهيلانة و هزميرة، ويبدو أن الفصائل القبلية الثلاث هي التي كانت تمتلك زمام الأمور بالمنطقة ويقال أنه طاف على قبائل المصامدة وكذلك قبائل تامسنا<sup>21</sup>. وتشير المعلومات القليلة وذات الطابع العام عن المحادثات التي دارت بين زعيم



يوفرها أبو علي صالح على أنه كان لأبي محمد عبد الله بن ياسين طلبية من المصامدة تتلمذوا عليه وبنوا مسجدا خاصا بهم. وكان هدفهم من ذلك تأسيس مركز للتصدي للبرغواطيين<sup>28</sup>. ومن العناصر القبلية التي شاركت في هذا العمل - ومن المحتمل أنها قبائل كانت تساند الدعوة المرابطية- هسكورة ورجرجة وصودة وهزرجة<sup>29</sup> بالإضافة إلى ذكالة إذا اعتبرناها من المصامدة<sup>30</sup> والقبائل التي تحدث عبد الله بن ياسين إلى أشياخها وهي هيلانة و وريكة و هزميرة، ويضيف ابن أبي زرع أن حاحة بايعت أبا بكر دون قتال<sup>31</sup>. وكان يوجد مع هؤلاء أحد العناصر الصنهاجية<sup>32</sup> إضافة إلى وجاج بن زلو اللمطي. ونخلص استنادا إلى ما سبق أن أغمات كانت مركزا للتواصل بين المصامدة والصنهاجيين جمعتهم فيها الوحدة المذهبية بتأطير من فقهاء المذهب السني المالكي. ومن ثم كانت مساندة المصامدة للمرابطين. ومن المحتمل أن رباط واجاج لم يكن الوحيد الذي ساهم في هذا التأطير بل كان تمت دور لرباط آخر اضطلع بالمهمة نفسها وكانت له علاقة بأغمات لأنه يعتبر منفذا بحريا لها وهو رباط قوز على ساحل البحر المحيط<sup>33</sup>. وهذا ما جعل الدعوة المرابطية تنتشر في بلاد النفيس وفي أغمات وفي الحواضر التي كانت بالمنطقة. وكانت العلاقات المتبادلة بين مصامدة الجبال والمناطق الحضرية سببا في انتشار الدعوة المرابطية في جميع المجال المصمودي. وهذا ما يفسر مشاركة المصامدة مع المرابطين في القضاء على برغواطة عندما " خرجوا في جمع عظيم من المرابطين والمصامدة"<sup>34</sup>. ونجد لهم ذكرا ومشاركة في أغلبية العمليات العسكرية التي كان يقوم بها المرابطون<sup>35</sup>، زيادة على بناء مدينة مراكش داخل المجال المصمودي بعد استشارة أشياخ المصامدة وبمساعدهم. وعند تنازل أبي بكر بن عمر عن حكم المغرب ليوسف بن تاشفين كان أشياخ المصامدة من بين الحاضرين في هذا اللقاء. بل نجدهم من بين الحاضرين مع المرابطين عند إعلان وفاة يوسف بن تاشفين وبيعة ابنه عليا<sup>36</sup>. ولعل زواج أبي بكر بن عمر ومن بعده يوسف بن تاشفين بزینب النفزاوية مع أنها غير مصمودية يدل على الارتباط والتوادد الذين كانا بين المرابطين وأهالي المنطقة بسبب المكانة التي كانت لزینب في بلاد المصامدة وفي أغمات.

وإذا كان للدعاية المرابطية وهيئتها أثر كبير في دخول المصامدة سلميا تحت حكم المرابطين فإن الموقف العام للرعية كان بدوره مهيا للوحدة التي اقترحها المشروع والدعوة المرابطية لوجود أزمة سياسية لم يتمكن المصامدة من حلها فيما بينهم بسبب الانقسامات التي ترتبت عن العصبية القبلية. ولم يكن حسب ما يورده محمد بن يوسف القيرواني- تنصيب حاكم لمدة سنة ثم تغييره بعد ذلك كاف لحل المشكل السياسي في ما بينهم<sup>37</sup>. وهذا ما يتضح من المحادثات التي جرت بين عبد الله بن ياسين وبين أشياخ المصامدة<sup>38</sup>. ولا شك ساعدت هذه الوضعية العامة على انتشار وذيوع فكرة الوحدة بين

المصامدة، وهذا ما يدل على موقفهم الإيجابي من الوحدة التي اضطلعت بها السلطة السياسية المرابطية وعلى المساعدة التي قدمها المصامدة لإتمام الوحدة بالمغرب والأندلس، ومما يؤكد ذلك أن منطقتهم هي التي احتضنت عاصمة الدولة مراكش. ولهذا كان من بين الوصايا التي تركها يوسف لابنه علي المحافظة على العلاقة الودية الطيبة مع أهل جبل درن المصامدة<sup>39</sup>.

قد يكون ما سبقت الإشارة إليه كافيا لإبراز النتائج الإيجابية لاستقرار المرابطين بالمنطقة. ولكن نود أن نؤكد هنا مرة أخرى أن استقرار المرابطين أو بالأحرى اتخاذ عاصمة لهم في مجال المصامدة كان عنصر استقرار بالمنطقة التي كانت تعيش تحت وطأة الفتن والغارات<sup>40</sup> لعدم وجود سلطة سياسية مركزية وموحدة تحكم المغرب الممزق إلى إمارات قزمية متناحرة. وبوصول المرابطين تم إنهاء هذه الوضعية القديمة و تمت إزالة عامل هام من عوامل الاضطراب، لأن الملتجئين جاؤوا بالوحدة والهدوء والأمن الذي أدى إلى الاستقرار. وهذا ما كانت تطمح إليه رعية المغرب التي ساعدت المرابطين على توحيد البلاد. ويتمثل ذلك بوضوح في بلاد المصامدة التي بنيت فيها مراكش. ومن ثم رأى أهل الجبل كأمثالهم من بقية رعية المغرب بالسهل أو "بالدير" حسب تعبير أحد الباحثين<sup>41</sup>، أن الصراع وتحين الفرص مع المناطق المعادية في السهل أو في الجبل - وهنا نأخذ بفكرة الصراع بين الجانبين - لم تعد ذا جدوى. ومن ثم كان هنالك تجاوب وتعايش وليس حيطة وحذر رغم التهميش الذي ألفه أهل الجبل. وعندما نستعمل نص ابن خلدون الذي كثيرا ما يتكرر في مثل هذا الموضوع نجده يقول: "وجعل يوسف مدينة مراكش لنزله ولعسكره ولتتمرس بقبائل المصامدة المصيفة بمواطنهم في جبل درن، فلم يكن في قبائل المغرب أشد منهم ولا أكثر جمعا"<sup>42</sup>. ونتيجة لذلك بنيت هذه العلاقة على ود وتفاهم وليس على حيطة وحذر. ولم يكن من حسن التدبير السياسي والاستراتيجي أن يقرر الحكام المرابطون بناء عاصمة دولتهم في مجال يعرفون أنه حيوي بالنسبة لأهل الجبل المجاورين ثم يقومون بتغيير العادات الاقتصادية لأهل الجبل أو القضاء عليها، مع أنهم يعرفون عنهم أنهم كثيرون العدد ويتصفون بالشدة وصعوبة المراس.

ولهذا أحدث تأسيس العاصمة المرابطية تجاوبا بين أهل الجبل وبين من استقر من المرابطين في السهل. ولهذا رأى ابن خلدون في أن بناء مراكش كان في أحد جوانبه من أجل " التمرس بقبائل المصامدة المصيفة في مواطنهم في جبل درن". ويؤكد هذه السياسة المرابطية تجاه مصامدة جبل درن صاحب الاستبصار<sup>43</sup> وابن عذاري<sup>44</sup> عندما يشيران إلى أن بناء المدينة جاء بسبب إرادة المرابطين السيطرة على أهل الجبل. فالسكن في مجال المصامدة كان يعبر عن إرادة اندماج وتأقلم مع المنطقة وأهلها. وتأسى العاصمة في بلاد المصامدة الذين كانت السلطة المركزية يجعل لهم اعتبارا خاصا لم يكن



من أجل منعهم من مناطق انتجاعهم لأن في هذا خطر كبير على جميع المنطقة. ومن المستبعد أن يفكر المرابطون في ذلك أو يعملوا شيئاً يؤدي إلى هذا المنع. ويشير ابن الزيات إلى أن أغمات غدت خلال حكم المرابطين مركزاً علمياً يتوجه إليها المصامدة من أهل الجبل للتفقه والتعلم ثم العودة إلى مواطنهم. و لعله أمر يفيد التجاوب الذي كان بين استقرار المرابطين بالمنطقة وأهل الجبل الذين استفادوا من هذا الاستقرار. زيادة على ذلك لا نملك أية إشارة إلى أي تصرف حدث قد يثير أهل الجبل. وإذا كان هذا ما توصلنا به من المصادر فعلى أن نوجه البحث في اتجاه آخر لمعرفة سبب معارضة المصامدة الجبال للمرابطين متجنبين بذلك فكرة الصراع بين أهل الجبل والسلطة المرابطية في بلاد المصامدة.

عندما نبحت في التعرف على هذه القبائل المعارضة من حيث سلوكهم وعقليتهم، فإننا نجدهم فئة منعزلة في الجبال حافظت على تقاليدها وعاداتها وأعرافها وعلى لغتها أيضاً. فلغة الفاتحين ودينهم لم يكونا قد تغلغلا جيداً في هذه الجبال الوعرة. وللامر علاقة مع وجود قبائل وثنية بها خلال القرن الخامس الهجري. ومن المحتمل أن يكون هذا الواقع وراء صياغة الأحاديث والقصص التي تتوعد أهل جبل درن بالنار في الحياة الآخرة. وقد تكون للعقلية والفكر الذين صاغوا مثل هذه الأحاديث علاقة بوجود التيار الشيعي البجلي في قبيلة بني ماغوس وقبيلة بني لباس؛ إذ استطاع رجل يسمى محمد بن وستد أن ينشر داخل هذه الأوساط عقيدة ترتكز حسب ما يورده البكري على سبب صحابة الرسول وإباحة كل المحرمات ثم أنهم تمسكوا بذلك إلى غاية القرن الخامس الهجري<sup>45</sup>. ويضيف أيضاً إلى أن بنولباس أو طائفة منهم كانت تقدر كيشاً وتعبده<sup>46</sup>. ومن المحتمل أن استقبال هذه القبائل للعقيدة البجلية علاقة بتقاليدها وأعرافها. ويبدو أن ابن تومرت - وهو ابن المنطقة - كان على علم بمعتقدات وتقاليد وأعراف هذه القبائل<sup>47</sup>. فاستغلها للدعاية لحركته ولنشر دعوته داخل قبائل مصامدة الجبال المنعزلين. وهذا ما دفعه ضمن عدد من الوسائل التقتيلية الرهيبة التي مارسها إلى تأليف عقيدته التي تسمى " بالمرشدة" باللغة البربرية لكي يتمكن المصامدة من فهمها والاطلاع عليها. و ظل الحكام الموحدون متشبثين باستعمال اللغة البربرية لأنها تمكنهم من فهم ما تركه لهم ابن تومرت. ولهذا "كانوا لا يقدمون للخطبة والإمامة إلا من يحفظ التوحيد واللسان البربري"<sup>48</sup> لأنه من غير معرفة اللغة لا يمكن استيعاب ما جاء به ابن تومرت. ولعل اقتصار ابن تومرت شرح عقيدته باللغة البربرية كان من أسباب اندثار مبادئه وعقيدته.

وتبرز لنا عقلية أهل هذه الجبال عندما وصل الداعية الموحدية إلى أيكيلي هرغة واستقر به، حيث صنع طعام محلي يأكله الجماعة من الناس. ولم يكن ابن تومرت من بين الأكليين فادعي عندئذ

جماعة من القبالة أن " الإمام لا يأكل ولا يشرب"<sup>49</sup> ويكون هذا النوع من العقلية على استعداد لتقبل مبادئ ابن تومرت حول العصمة والمهدوية. ثم هنالك السيناريو الذي حبكه ابن تومرت مع الونشريسي، وهو ما استساغه المصامدة بخصوص "المعجزة" التي ألّفها للونشريسي لاستمالة من لم يكن قد أذعن بعد لدعوته. وهذا التدبير انتهى بتقتيل جماعي سمي "بالتميز"<sup>50</sup> مكن ابن تومرت من تثبيت أقدامه في بلاد مصامدة الجبل. ومنحت هذه العقلية في ما يبدو الونشريسي مكافئة على العمليات التقتيلية التي ساهم فيها في التمييز عندما منحه درجة رفيعة بعد مقتله في معركة البحيرة. فبعد مقتله دفنه عبد المومن دون علم من عامة الجند- ودفنه بهذا الشكل له أبعاده- ولما لم يعثروا عليه " قالوا رفعته الملائكة"<sup>51</sup>. وتوجت هذه العقلية مستواها بأن تبنت عصمة ومهدوية ابن تومرت، ومن ثم الأعمال التقتيلية التي كان يقوم بها.

كما كان لهذه القبائل سلوك خاص تميزوا به وعرفوا به إذ كانوا ميالين إلى سفك الدماء وكانت لهم جرأة قتالية. وعانين عبد الواحد المراكشي باستغراب كبير عمق هذا السلوك عند المصامدة: " وأما خفة سفك الدماء عندهم فقد شهدت أنا منه أيام كوني بسوس ما قضيت منه العجب"<sup>52</sup>. وإذا كان هذا السلوك العنيف يؤكد عزلتهم في أحد جوانبه عزلتهم ومحافظتهم على تقاليدهم وأعرافهم فإن ابن تومرت استفاد من هذا السلوك المصمودي الذي كان يعرفه جیدان فاستعمله في التمييز لقتل وتصفية معارضيه من بين مصامدة الجبال أنفسهم. وأصبح في ما بعد صبغة خاصة عرف بها الموحدون واستعملها عبد المومن في عملية التقتيل الجماعي الذي سمي "بالاعتراف" وفي جميع العمليات العنيفة التي قام بها الموحدون في الحواضر والوادي المغربية. ولم تستثن الأندلس من هذه السياسة التي سار عليها أخوا ابن تومرت في أشبيلية<sup>53</sup>. و نجد ضمن هذا السلوك أن أعيان قبيلة هرغة وأقارب ابن تومرت خططوا لاغتيال عبد المومن، غير أنه نجح من هذا التدبير<sup>54</sup>.

ويحتمل استنادا إلى وصية يوسف بن تاشفين إلى ابنه علي بالمصامدة وأهل جبل درن أن تكون السلطة المرابطية على معرفة بخطورة هؤلاء الرعايا وعقليتهم، مع أنهم رحبوا بالمرابطين عند وصولهم إلى المنطقة التي قرر المثلثون بناء عاصمة دولتهم فيها. ولا نعلم أن أهالي هذه القبائل اصطدمت مع السلطة الحاكمة قبل ظهور ابن تومرت، فالداعية الموحدية هو الذي قام بدور حاسم في تغيير موقف هذه القبائل فانقلبت بعدها على المرابطين. وقد توحى مساندة هذه القبائل لابن تومرت أنها كانت تنتظر العوامل الملائمة للثورة على السلطة الحاكمة؛ فهل كان الأمر كذلك؟

### 3- ابن تومرت ومصادمة الجبال

إذا ما انتبهنا إلى الطريق التي سلكها ابن تومرت في عودته إلى المغرب والمحطات التي مر منها في المراكز الحضرية فإن ما ينجلي للوهلة الأولى أن وجهته كانت مراكز عاصمة الدولة المرابطية؛ وابتداء منها سيصعد إلى تملل ويشرع في تأليب مصادمة الجبال على الحكام. ثم أن قبيلته لم تكن بعيدة عن موقع العاصمة.

أما أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فقد تسبب له في مشاكل متعددة كانت أولاها ما حدث له في السفينة عندما ألقاه أصحابها في البحر ثم أصدده إلى مركبهم<sup>55</sup>. فهل لأمر إلقائه في البحر علاقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أم أن ذلك بسبب تصرف خاص للزعيم الموحد؟

وبحسبنا عن هذه العودة البيدق أحد الموحدين المتعصبين الذي بدت له المذابح الرهيبة التي ارتكبتها الموحدون مثل المذابح التي سموها "بالاعتراف" أمرا ضروريا وعاديا، إذ يقول ببرودة تامة أو عن جهل تام: "وتم الاعتراف بحمد الله وعونه والصلاة على محمد نبيه. فهدأ الله البلاد للموحدين وأعانهم على الحق ونصرهم وأقاموا الدين ولم يتفرقوا فيه وأزال الله ما كان فيها من التخليط"<sup>56</sup>. فصاحب هذه العقلية هو الذي يخبرنا عن رحلة عودة ابن تومرت وما جرى له في المراكز الحضرية على وجه الخصوص. وهذا أمر لاشك من ورائه قصد بائن لأن المراكز الحضرية هي نقط للأشعاع المعرفي والديني وغيرهما. وكانت الصورة التي يرسمها لنا البيدق هي أن الفقهاء والقضاة، سواء في تونس أم في قسنطينة أم في بجاية<sup>57</sup> أم غيرها، لا يعلمون الشيء الكثير عن التعاليم الإسلامية- أو على الأقل دون أن نذهب بعيدا- يتجاهلون ذلك. وكان المنتقد الذي يقوم الاعوجاج ويعلم خبايا التعاليم الدينية هو بطله ابن تومرت. وكان رد كل المناطق التي مر منها واحدا، ينتهي بطرد ابن تومرت ورفاقه على الشاكلة نفسها التي حدثت له في السفينة<sup>58</sup>. وعندما وصل إلى أغمات المدينة الهامة والمركز العلمي الذي يقع في المجال المصمودي ما كان من أهلها إلا رفض الداعية الموحى فقاموا بإخبار السلطة المرابطية بوجوده في مدينتهم<sup>59</sup>.

وهذا المصير الذي كان يلقاه ابن تومرت دائما يثير عددا من التساؤلات المريبة حول شخصيته. وهو مصير نجده لا يختلف عما وجده عند مصادمة الجبال أو على الأقل عند فئة هامة منهم. و يمثل "التمييز" العملية الدموية التي بيثها ابن تومرت مع الونشريسي وبطانته دليلا من أبرز الدلائل على المواقف الراضية لدعوة ابن تومرت. كان الهدف من التمييز هو القضاء على المعارضة المصمودية التي كانت في جبل درن ضمن قبائل هرغة و جنسيفة. وكان الونشريسي هو قاضي هذه المذبحة التي عاشها

المصامدة الجبال سنة 519هـ/1125م<sup>60</sup>. وكان الغرض من التمييز واضحا عبر عنه ابن تومرت بقوله: "ليقوم لك مقام المعجزة لنستميل بك قلوب من لا يدخل في الطاعة"<sup>61</sup>. وكذلك لكي "لا يبقى في الجبل مخالف"<sup>62</sup>. ومن ثم لم تكن مساندة أهل الجبل عفوية ولم يرقموا في أحضان ابن تومرت للقيام ضد المرابطين. وأبرز ما في الأمر - في ما يرتبط بالفئة المساندة لابن تومرت والمعارضة له - أن الزعيم الموحدى لم يكن في سياسته لاستقطاب الأنصار يميل إلى أهل العقل والفكر والعلم والنباهة، بل كان يسعى إلى استقطاب ذوي القوة الجسمانية فحسب<sup>63</sup>. ولا شك أن لهذا التوجه علاقة بالطرد الذي تعرض له في جميع المناطق التي حل بها وأيضا بسياسة ابن تومرت التقتيلية التي اتبعها الموحدون مع المعارضين لهم؛ إذ يتضح أن للرجل توجه عنيف وسياسة رهيبة لا علاقة لها بسياسة الدعوة بالإقناع والحوار. وهذا ما عاينه "ذوو العقل والعلم والحلم"<sup>64</sup> من قبائل مصامدة الجبال الذين رفضوا الدخول في دعوة ابن تومرت، وكانت هذه الفئة تنصح صغار العقول وأحداث الرجال ممن ليس لديهم تجربة وبعد نظر بعدم الانضمام إلى الحركة معللين ذلك بأنه ضد نظام الحكم<sup>65</sup>. وهذا ما قد يفسر ارتباطهم بالحكم المرابطي. وكان هذا الموقف يؤثر سلبيا على دعوة ابن تومرت<sup>66</sup> الذي لم يستطع مع وجود هذه الفئة أن يفرض عصمته ومهدويته اللتان ترتب عنهما الطاعة المطلقة للإمام. فاستعمل بسبب ذلك الحيل والمعجزات تمويهها وأنهى ذلك بعمليات التقتيل الجماعي.

وتتوفر على صورة أخرى لانقسام مصامدة الجبال حول حركة ابن تومرت، وهذا الانقسام الذي أحدث انشقاقا في صفوفهم لم يكن يخدم الدعوة الموحدية في مبادئها، "وقامت الفتنة بين قبائل المصامدة يقاتل الرجل أباه وأخاه في داره... ويكفر بعضهم بعضا"<sup>67</sup>. ويبدو أن هزيمة البحيرة التي تكبدها الموحدون كان وقعها شديدا على ابن تومرت وعلى القبائل المساندة له فعقب هذه الهزيمة أصبح زعيم الدعوة "يكثر التزهّد والتقلل ويظهر التشبه بالصالحين والتشدد في إقامة الحدود"<sup>68</sup>. ولا شك أن هذا السلوك الذي كان ابن تومرت يتقن تمثيله كان عبارة عن حيلة وحذر من آثار هذه الهزيمة على أوساط القبائل التي فقدت عددا كبيرا من مقاتليها قدره ابن سماك بـ 40.000<sup>69</sup>. ويحتمل أن يكون لهذا المسلك الذي اتخذه ابن تومرت علاقة بوجود أصوات معارضة برزت بعد الهزيمة التي كان أثارها عميقة في نفوس المصامدة، فدعاهم الأمر إلى إعادة النظر في موقفهم.

ونستنتج مما سبق أن للسياسة الدعائية وكيفية استقطاب أنصار حركة ابن تومرت دلالة على الأهداف السياسية المكافيلية للدعوة. ويدل الأمر أيضا على أن مصامدة الجبال كان لهم موقف خاص من ابن تومرت عند وصوله إلى مجاهمهم. وهو موقف تميز بالرفض من قبل نخبة القبائل، فكان اعتماده

على ذوي العقول الضعيفة لأنه " وجدهم قوما جهلة لا يعرفون شيئا من أمور الدنيا ولا من أمور الدين فاستهواهم بكيده"<sup>70</sup>. وهذا ما جعل ابن تومرت يعتمد في نشر دعوته على العامة وأصحاب القوة الجسمانية مبتعدا عن طبقة النخبة العاملة، واتبع الموحدون النهج نفسه<sup>71</sup>. ومن أجل ذلك لم يكن مصامدة الجبال عناصر مستعدة للثورة تتحين الفرص وتنتظر من يخلصها من الحكم المرابطي أو من السلطة المركزية. ولهذا ظهرت فئة معارضة لما يقوم به ابن تومرت ويدعيه من عصمة ومهدوية وتوحيد على طريقته. وكانت هذه الفئة المعارضة تنتمي إلى نخبة القبائل. غير أن ما استعمله ابن تومرت من سياسة وحيل ومن "تخليط الكلام"<sup>72</sup> تمكن بواسطته من استقطاب فئة كبيرة من الطبقات الدنيا التي تكون دائما أكثر عددا من النخبة والفئة العاملة في مجال جغرافي يسوده التهميش والعزلة ولعقلية أهله صبغة خاصة، دون أن يغفل سياسة المذابح الرهيبة التي أقامها لتركيز دعوته. فأصبحت لديه آلة عسكرية تقتيلية يحركها كيف يشاء معتمدا في ذلك على ما ادعاه من عصمة و مهدوية اللتان يترتب عنهما عدم مناقشة الأوامر و التوجيهات. ومن ثم استغل تلك القوة في القضاء على المعارضين وفي الإطاحة بالحكم المرابطي الذي كان هدفه الأسمى. وقد استمر هذا التقرب من الطبقات الدنيا و من العوام خلال حكم الموحدين وهي السياسة التي سار على نهجها كل من عبد المومن<sup>73</sup> والمنصور<sup>74</sup> ، وهو أمر له دلالة على هشاشة البناء الفكري و العقائدي الذي اعتمده الموحدون مما أدى إلى اندثار العقيدة الموحدية رغم الجهود التي بذلها ابن تومرت وعبد المومن<sup>75</sup>. وإذا أضفنا إلى ذلك ما عمد إليه المأمون من إلغاء للعقيدة الموحدية نخلص إلى أن هذه العقيدة كانت في صراع مع المجتمع لأن المراكز الحضريّة الهامة في المغرب والأندلس لم تكن لتستسيغ ما جاء به ابن تومرت الذي عمل بكل الوسائل لنشر دعوته داخل أوساط المصامدة. وحسبنا هنا التذكير بالتقتيل الجماعي الرهيب الذي سمي " بالتمييز". ففئة الأنتلجنسيا من الفقهاء وغيرهم وكذلك باقي الرعية التي كانت في الحواضر مراكز الإشعاع الحضاري لم تستسيغ عقيدة ابن تومرت التي كانت بعيدة عن قناعاتها السنية. وكان ما قام به ابن تومرت وملازمه عبد المؤمن كافيا من الناحية العملية لكي يبرز للرأي العام وللرعية عامة التصرفات العنيفة لأساليب الإخضاع والدعاية، وهي أساليب لا شك ربطها هذا الفكر وهذا الموقف بالعقيدة الموحدية. لقد تمكن ابن تومرت من تثبيت دعوته عند مصامدة الجبال وساندته قبائلهم مثل هرغة وتينملل وهنتاة وجميوة الجبل وجنسيقة الجبل<sup>76</sup>، ثم اتسع نطاق معارضة القبائل الجبلية حتى وصل جبال غمارة<sup>77</sup>، ولكن رغم الموقف العارض للموحدين وللقبائل التي ساندتهم فإن دعوتهم ظلت منحصرة في المناطق الجبلية من سنة 515 إلى سنة 539 عندما تم الاستيلاء على وهران. وانعزال

الموحدين في المنطق الجبلية التي كانت منعزلة أمر كاف للدلالة على أن حركة ابن تومرت منذ بدايتها لم تستطع التغلغل ولا الدخول إلى المراكز الحضرية . وهذا ما يفيد أن المقاومة التي واجهها الموحدون كانت عنيفة، وهي مقاومة اضطلعت بها السلطة المركزية والحوضر في آن مما يدل على رفض أهل المناطق السهلية ، بوادي وحوضر، الانضمام إلى حركة الموحدين. وهذا الرفض هو الذي كان سببا في سياسة المذابح وتخريب المدن و"الاعتراف"<sup>78</sup>. وهو ما أدى إلى اندثار المذهب الموحي والعقيدة التومرتية لأن ما يفرض بالقوة والقهر لا يمكن أن يستمر إلا مع القوة والقهر. والعنف والقهر والمكايد والحيل أو " التخليط" لا يمكن لأي منها أن يفرض أي أمر كيف ما كان إلا ظاهريا ولمدة محدودة.

## الإحالات

- <sup>1</sup> - انظر على سبيل المثال ما يقدمه ابراهيم القادري بوتشيش في: البنية القبلية بالمغرب ومسألة المساواة والتراتب الاجتماعي، في دراسات عربية، ع. 5-6، 1993، ص 81-87؛ وفي مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، بيروت، دار الطليعة، 1998، ص 216-221.
- <sup>2</sup> - ابن عبدون محمد بن أحمد التجيبي، رسالة في القضاء والحسبة، نشرها ليفي بروفنصال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، القاهرة المعهد العلمي الفرنسي، 1955، ص 28؛ العزفي أبو العباس أحمد اللخمي، دعامة اليقين في زعامة المتقين، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، مكتبة خدمة الكتاب، دون تاريخ، ص 41؛ ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، الرباط، دار المنصور، 1972؛ الونشريسي أبو العباس أجمد، المعيار المغربي، بإشراف محمد حجي، بيروت دار الغرب الإسلامي، 1981، ج 11، ص 214.
- <sup>3</sup> - البكري أبو عبيد عبد الله، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، بعناية De Slane، الجزائر، 1911، ص 161.
- <sup>4</sup> - نفسه ص 160
- <sup>5</sup> - نفسه، ص 161، بولقطيب (1989) المصامدة وقيام دولة الموحدين، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب بفاس، مرقونة، ص 208-210.
- <sup>6</sup> - القرطاس، ص 177؛ بولقطيب (1989)، ص 206-207.
- <sup>7</sup> - أبو علي صالح، كتاب القبلة، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم 985 ضمن مجموع، مرقم ص 5؛ وكانت جهات من جبال غمارة تعرف الحالة نفسها؛ وقد وصف صاحب الاستبصار أهالي المنطقة بأن لهم " مذاهب شتى وسير مختلفة". وهم الذين ادعى النبوة عندهم حاميم الملقب بالمفتري واتبعته أعداد كبيرة منهم. ويتضح أن المرابطين عملوا كل ما في وسعهم لإدماج أهالي جبال غمارة في إطار التيار السني رغم المشاكل التي كانت تعرفها السلطة مع أهالي هذه الجبال، مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء دار النشر المغربية، 1985، ص 191؛ البكري، ص 102 وص 192؛ البيدق أبو بكر بن علي الصنهاجي، أخبار المهدي ابن تومرت، الرباط، دار المنصور، 1971، ص 24؛ العبادي أحمد مختار (د.ت.) في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية. ص 319؛ Ferhat Halima et Triki Hamid (1988/89), Faux prophètes et mahdis dans le Maroc médiéval, in Hesperis Tamuda (26-27), pp.5-23, p. 13-14 ؛
- القادري بوتشيش ابراهيم (1993) الفكر السحري والعرفة بالمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ضمن ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية، تيارات الفكر في المغرب والأندلس، تطوان، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب، ص 345-355، ص 335.
- <sup>8</sup> - ابن عذاري، ج 4، ص 15-16؛ ابن أبي زرع، القرطاس، ص 128-129؛ ابن سمالك، الحل، ص 26.
- <sup>9</sup> - القادري (1998)، مباحث، ص 243-247.

- <sup>10</sup> - ابن عياض أبو عبد الله محمد بن موسى، التعريف بالقاضي عياض، تحقيق محمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1990، ص 37؛ الوشريسي، ج 10، ص 102.
- <sup>11</sup> - ابن عبدون، ص 49.
- <sup>12</sup> - ابن عياض، مذاهب، ص 37؛ الوشريسي، ج 10، ص 102.
- <sup>13</sup> - محمد رابطة الدين (1998)، الموحدون واختيار مراكش، ضمن منوعات محمد حجي نشر بناسبة صدور موسوعة أعلام المغرب، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ص ص 185-199، ص 199.
- <sup>14</sup> - نفسه.
- <sup>15</sup> - ابن سمالك العاملي أبو القاسم محمد بن أبي العلاء، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء دار الرشاد الحديثة، 1979/1399، ص 83.
- <sup>16</sup> - Sadqi Ali (1990), La montagne marocaine et le pouvoir central, un conflit séculaire mal élucidé, in Hesperis Tamuda, (28), Fas.unique, pp15-28, p. 17.
- <sup>17</sup> - نفسه، ص 18.
- <sup>18</sup> - ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي، كتاب صورة الأرض، منشورات جغرافية عربي، لندن، بريل، ط. الثانية، 1968، ص 91؛ البكري، ص 160؛ مجهول، الاستبصار، ص 209؛ الزهري أبو عبيد الله محمد، كتاب الجغرافيا، تحقيق حاج صادق نشر في Bulletin d'études orientales, T. XXI, 1968, pp 11-312، ص 190؛ الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار، حققه إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1966، ص 540؛ الإدريسي أبو عبد الله محمد، كتاب نزهة المشتاق، القاهرة مكتبة الثقافة الدينية، د. ت.، ج 1، ص 234؛ ابن سعيد أبو الحسن علي، الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت المكتب التجاري للطباعة والنشر، 1970، ص 125.
- <sup>19</sup> - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب بعناية إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ط. الثالثة، 1983، ج 4، ص 15.
- <sup>20</sup> - البكري، ص 153؛ الإدريسي، ج 1، ص 229.
- <sup>21</sup> - ابن عذاري، ج 4، ص 15.
- <sup>22</sup> - المصدر السابق، ج 4، ص 10 و ص 15؛ ابن سمالك، ص 20 و ص 23.
- <sup>23</sup> - ابن عذاري، ج 4، ص 15.
- <sup>24</sup> - بلاوي أحمد (1989)، الإطار البشري والحياة الحضرية بناحية مراكش قبل التأسيس، ضمن أشغل الملتقى الأول حول مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحيدي، الدار البيضاء، ص 48.
- <sup>25</sup> - ابن أبي زرع، ص 129؛ ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 244.



- 26 - ابن الزيات، التشوف، ص 89؛ مجهول، مفاخر البربر، نشر ضمن المصادر الأندلسية (20)، ، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، ص213.
- 27 - ابن الزيات، ص 93.
- 28 - أبو علي صالح، كتاب القبلة، مخطوط مرقم، ص 16.
- 29 - ابن القطان، ص 131؛ ابن عبد الحليم، كتاب الأنساب، نشر ضمن المصادر الأندلسية (20) نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1996، ص 55؛ أبو علي صالح، مخطوط مرقم، ص 16؛ ابن سمالك، الحلل، ص 23؛ أما قبيلة صودة فهي إحدى قبائل مصامدة الجبال، انظر بلاوي (1989)، ص 48.
- 30 - عن أسماء قبائل المصامدة ومواطنهم انظر بولقطيب الحسين (1989) المصامدة، ص 39-72.
- 31 - القرطاس، ص 129.
- 32 - أب علي صالح، ص 16.
- 33 - البكري، ص 86 و ص 153.
- 34 - عياض بن موسى بن عياض، ترتيب المدارك، بعناية عبد القادر الصحراوي، المحمدية، د.ت. ج 2، ص 82؛ ابن عذاري، ج 4، ص 17.
- 35 - ابن عذاري ج 4، ص 18 و ص 48؛ وكذلك الإشارات التي نجدها عند ابن أبي زرع، ص 133 و ص 142.
- 36 - ابن عذاري، ج 4، ص 48.
- 37 - البكري، ص 153.
- 38 - ابن عذاري، ج 4، ص 10 و ص 15؛ ابن سمالك، الحلل، ص 20 و ص 23.
- 39 - ابن سمالك، الحلل، ص 83.
- 40 - ابن عذاري ج 4، ص 10.
- 41 - Sadqi A. (1990), La montagne, p 17-18
- 42 - ابن خلدون، العبر، بعناية خليل شحادة وسهيل زكار، بيروت، دار الفكر، 1981/1401، ج 6، ص 245.
- 43 - ص 209.
- 44 - البيان، ج 4، ص 20.
- 45 - المغرب، ص 161؛ القاضي وداد، الشيعة البجليّة في المغرب الأقصى، ضمن أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي، تونس، ص 165-194، ص 191.
- 46 - البكري، ص 161.

- 47 - انظر دندش عصمت عبد اللطيف (1987)، المهدي بن تومرت والباطنية، ضمن أضواء جديدة على المرابطين، بيروت، دار الغرب الإسلامي، (1991)، ص 11-32، ص 14-15 و ص 22-23.
- 48 - الجزنائي علي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط المطبعة الملكية، ط. الثانية، 1411-1991، ص 56؛ ويرى علي أومليل، (1988)، السلطة السياسية والسلطة العلمية، الغزالي، ابن تومرت، ابن رشد، ضمن أبو حامد الغزالي دراسات في فكره وعصره وتأثيره، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 9، ص 11-31، ص 23-24، فيما يرتبط بعقيدة ابن تومرت التي ألفها باللغة البربرية أنه "صاغ عقيدة من أدق العقائد ألف فيها تأليفاً فذا بين أفكار من مصادر مختلفة من المعتزلة وابن حزم والإمامية وبالخصوص الأشعرية... من يقرأ... المرشدة يجد أنها خلاصة مركبة من الطبقة العالية في الكلام بحيث لا يستطيع إدراك معانيها إلا أهل هذا الفن المتمرسون بقضاياها". فإذا كان الأمر كذلك، كيف يمكن لأهل هذه الجبال المنعزلة التي ما تزال بها العقائد الوثنية ممتزجة ببعض العقائد الشيعية أن تفهم ما كتبه ابن تومرت؟ مع التأكيد أن علي أمليل يصف عقيدة ابن تومرت "بخلاصة مركبة من الطبقة العالية في الكلام". وإذا كان التهميش والعزلة الثقافية والدينية هو ما يخيم على أهل البوادي فكيف يمكن أن نتصور أن مصامدة الجبال فهموا ما كان ينشره ابن تومرت مما صاغه من مذاهب كلامية مختلفة. ولنا أن نتساءل كيف استطاع أن يترجم إلى اللغة البربرية المصطلحات والتعابير الكلامية ليفسرها لقبايل جل أفرادها لا يعرف القراءة والكتابة؟! لا شك أن هذه الملاحظات توضح لنا الانفصال الذي كان بين ما ألفه ابن تومرت وبين المصامدة الذين اتبعوه. ولعلمهم فعلوا ذلك متأثرين بسياسة المعجزات والخوارق التي صاغ إخراجها وحبه مع بطانته زيادة على سياسة المذابح. ورجل يتعامل بهذا السلوك أمر يجعلنا نتساءل مرة أخرى عن استطاعته تأليف عقيدة "من الطبقة العالية في الكلام"؟!
- 49 - البيدق، أخبار، ص 33.
- 50 - ابن القطان الكتامي أبو محمد بن علي، نظم الجمان، درسه وقدم له وحققه محمود علي مكي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص 146-148؛ ابن خلكان أبو العباس شمس الدين، وفيات الأعيان، بعناية إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج 5، ص 52؛ ابن عذاري، ج 4، ص 68-69؛ النويري أحمد بن عبد الوهاب، تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الأرب، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف، الدر البيضاء، دار النشر المغربية، 1984، ص 401.
- 51 - النويري، نهاية، ص 404.
- 52 - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، بعناية محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الدار البيضاء، دار الكتاب، ط. 7، 1978، ص 281؛ القزويني زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، د.ت.)، ص 163.

- 53 - ابن عذاري، قسم الموحدين، ص 38؛ ابن خلدون، ج 6، ص 313.
- 54 - المراكشي، المعجب، ص 341.
- 55 - نفسه، ص 264.
- 56 - البيدق، أخبار، ص 72.
- 57 - البيدق، أخبار، ص 11-13؛ ابن الأثير أبو الحسن علي، الكامل في التاريخ، بعناية C.J. Tornberg, 1864, Brill, Leiden, بيروت، دار صادر، 1979، ج 10، ص 570.
- 58 - المصدران السابقان.
- 59 - البيدق، أخبار، ص 31.
- 60 - ابن القطان، ص 146-148؛ ابن الأثير، ص ج 10، ص 572-573؛ ابن خلكان، ص ج 5، ص 53؛ ابن عذاري، ج 4، ص 68-69؛ النويري، ص ص 401؛ دندش، (1987)، ابن تومرت، ص 28-30.
- 61 - ابن خلكان، ج 5، ص 53.
- 62 - نفسه؛ النويري، ص ص 401.
- 63 - ابن خلكان، ج 5، ص 48؛ دندش (1987)، ابن تومرت، ص 20-21؛
- Zniber Mohamed (1994), L'itineraire psycho-intellectuel d'Ibn Tawmart, in Mahdisme : crise et changement dans l'histoire du Maroc, n°35, Rabat, facultés des lettres, pp15-29.
- 64 - ابن خلكان، ج 5، ص 51.
- 65 - المراكشي، المعجب، ص 341.
- 66 - ابن خلكان، ج 5، ص 51؛ النويري، ص 401.
- 67 - ابن عذاري، ج 4، ص 85.
- 68 - المراكشي، المعجب، ص 283.
- 69 - الحلل، ص 116.
- 70 - ابن أبي زرع، ص 177.
- 71 - البيدق، ص 21-22 و ص 79؛ المراكشي، ص 271-272 و ص 275، ابن أبي زرع، ص 175؛ ابن عذاري، قسم الموحدين، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ومحمد بن تاوينا وآخرون، الدار البيضاء دار الثقافة، 1985/1406، ص 174-175، ابن سماك الحلل، ص 101، أو مليل (1988)، السلطة، ص 28؛ القادري بوتشيش ابراهيم (1989)، العوام في مراكش خلال عصري المرابطين والموحدين، ضمن مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي، أشغال الملتقى الأول، 1988، الدار البيضاء، ص 129.
- 72 - ابن خلكان، ج 5، ص 46.
- 73 - البيدق، ص 79.

<sup>74</sup> - ابن عذاري، قسم الموحدين، ص 173-174؛ أو مليل، (1988)، السلطة، ص 28؛ القادري بوتشيش (1989)، العوام، ص 129.

<sup>75</sup> -Le Tourneau Roger (1970), Sur la disparition de la doctrine almohade, in Studia Isalica, T.32, pp 193-201.

<sup>76</sup> - البيدق، ص 36-37؛ ابن القطان، ص 84-85 و ص 133.

<sup>77</sup> - ابن عذاري، ج 4، ص 85؛ ابن الأحمر اسماعيل بن يوسف، بيوتات فاس الكبرى، الرباط، دار المنصور، 1972، ص 33؛ ابن سناك، الحلل، ص 111-113 و ص 130.

<sup>78</sup> - يشير علي أو مليل (1988)، السلطة السياسية، إلى " أن هناك التصفيات الرهيبة التي قتل فيها الآلاف وأفنيت فيها القبائل بأسرها باسم التمييز والاعتراف.... لكن قوة ونجاح الدولة الموحدية جعلت الصورة المشرفة لها هي الغالبة. وكلما تدهورت صورة المغرب في العصور اللاحقة كلما أشرقت صورة العهد الموحد، منذ العصر الموحد حتى العصر الحاضر" وفي السياق نفسه يقرر Ali Sadqi (1990), La montagne, : « La magnifique épopée almoahade fut incontestablement la leur » p. 19 ; " إن حسن الملحمة الموحدية كانت بلا مراء خاصة بهم" إن الأمر هنا يدعو إلى الاستغراب وإنه من الصعب على الباحث أن يستسيغ مثل هذه الأحكام والإطراءات التي تمجد الموحدين ودولتهم. وإن أشراف العهد الموحد ووصفه بالملحمة تعبيران دعائيان كانا من غير أدنى شك يلقيان ترحيبا ومنزلة حسنة عند ابن تومرت أو عند الحكام الموحدين. ولكن ما فائدتهما في ميدان البحث؟! ثم إن الأرواح التي أزهقت وقتلت وجميع العمليات التخريبية التي عرفها المغرب والأندلس والوقت الطويل الذي تطلبتة عملية إسقاط الحكم المرابطي وإخضاع الرعية كل ذلك أصاب المجال والمجتمع بالغرب الإسلامي بخسارات كبيرة وفادحة كان بالإمكان استخدامها في استقرار المجتمع و مواجهة الاعتداءات المسيحية بالأندلس، وهذا ما قام به المرابطون. وكانت هذه الوضعية المزرية سببا في اندلاع الحرب الأهلية بالأندلس. وأصبحت جميع العوامل فيه تشجع المسيحيين على اقتطاع الأراضي تلو الأراضي وفقدت الأندلس مناخ الاستقرار الذي عرفته بعد نهاية حكم الطوائف ومجيء المرابطين. وأضحت رغم مجيء الموحدين في اندحار سريع نحو الهاوية. وكان توجيه حكام الموحدين اهتمامهم الكبير إلى التوسع في الشمال الإفريقي سياسة تعبيرية عن عدم الاهتمام الكبير بالحدود الشمالية بالأندلس، الحدود التي كانت أولى انشغالات المرابطين. فالتوسع الموحد اتجه شرقا وانحصر شمالا، وهو ما جر مشاكل خطيرة ستعرفها الأندلس والمغرب في ما بعد لأن الخطر كان قادما من شمال الغرب الإسلامي وليس من شرقه.